

الاستعداد للآخرة؛ كيف تتحوّل لحظات الدنيا العابرة إلى أفقٍ أبدي؟

الاستعداد للآخرة؛ نظرة جديدة إلى معنى الحياة الدنيوية

لا تنحصر حياتنا في هذا العالم المحدود والمحسوس فحسب؛ فالموت لا يمثّل نهاية الوجود، بل هو انتقال إلى طور آخر من الحياة تتحدد فيه كيفية حضورنا بقدر ما صنعناه لأنفسنا في هذه الدنيا. ومن ثمّ، فإن الحديث عن «الاستعداد للآخرة» لا يتعلّق بأمر مؤجّل أو مستقبلي بحث، بل هو في جوهره حديث عن كيفية تعاملنا مع حياتنا اليومية الراهنة.

إن العلاقة بين الدنيا والآخرة تشبه، في بنيتها العميقة، العلاقة بين رحم الأم والعالم الخارجي؛ فكما أن أداء الجنين داخل الرحم يحدّد نوعية حياته بعد الولادة، فإن نمط عيش الإنسان في الدنيا يحدّد بصورة مباشرة كيفية دخوله إلى الحياة الأخرى ونوعية وجوده فيها. وكما أن الرحم بيئة مؤقتة لكنها حاسمة في تكوين الجسد، فإن الدنيا بدورها تمثّل المجال الذي تتشكّل فيه بنية وجودنا المؤهّلة للحياة بعد الموت. وفي كلا المرحلتين، يتمحور الأمر حول الاستعداد لـ"الولادة".

قبل أن نولد إلى هذا العالم، نكون في رحم الأم في حالة بناء مستمر للأدوات اللازمة للحياة: يكتمل القلب، ويتشكّل الجهاز البصري، وتنمو الأجهزة الحيوية الأخرى. ولا تتجلّى نتائج هذا البناء إلا بعد الولادة؛ إذ تمثّل الولادة بداية تقييم المرحلة الخفية التي قضاها الجنين. وعلامة الولادة السليمة أن يكون الجنين قد اقترب تدريجياً من الكمال، وأن تكون أعضاؤه قد تهيّأت بما يتناسب مع متطلبات الحياة اللاحقة. وبالمثل، فإن حياتنا الدنيوية هي مرحلة بناء للوجود الإنساني، وجودٍ ننقل به. بعد الموت. إلى عالم البرزخ بالكيفية نفسها التي تشكّل بها هنا.

ولتقريب هذه الحقيقة، يكفي التأمل في أمثلة بسيطة من واقعنا؛ فعندما لا نفعل في ذواتنا أسماء الله الحسنی كالرحمن، والغفور، والشكور، وغيرها، فإننا في الواقع لا نطوّر الأدوات الوجودية اللازمة للحياة في الآخرة. وكما أن المولود الذي يفتقر إلى رئتين سليمتين يعجز عن التنفّس بسهولة بعد الولادة، فإن الإنسان الذي لم يُنمّ هذه القيم الإلهية في نفسه طوال حياته الدنيوية سيواجه عند دخوله عالم البرزخ ضيقاً ومعاناة.

وهذه المعاناة ليست عقوبة عرضية، بل نتيجة طبيعية لقصور في التكوين الوجودي، ولنقص في الأدوات المتناسبة مع شروط الحياة الآخوية.

وفق هذا المنظور، لا يعني الاستعداد للآخرة مجرد ادّخار الأعمال، بل يعني - في جوهره - نموّ الإنسان ذاته. فالنمو الوجودي هو لبّ الاستعداد الحقيقي للآخرة. وهنا لا يكون الزمن عنصراً محايداً؛ فمع كل يوم يمضي، إما أن نكون في طور بناء القدرات اللازمة للحياة الأبدية المقبلة، أو نكون قد أضعنا فرصة النمو. إن الدنيا هي رحمننا، والخروج منها هو ولادتنا، وجودة هذه الولادة ليست سوى حصيلة ما نصنعه من ذواتنا اليوم.

الموت؛ ولادة جديدة في مسار الاستعداد للآخرة

غالباً ما يُنظر إلى الموت بوصفه نهاية الحياة، غير أن الرؤية الإلهية تقدّمه على أنه بداية مرحلة أخرى من الوجود. إنه ولادة جديدة، تتحدد جودتها بشكل مباشر بما بنيناه لأنفسنا في الدنيا. وكما أن جودة ولادة الطفل تمثّل خلاصة تقييم مرحلته الجنينية، فإن الموت يكشف نتائج الحياة التي عاشها الإنسان في هذا العالم. في هذا السياق، يكتسب مفهوم «العمل المقبول» دلالة أعمق من مجرد أداء فعل حسن أو اجتناب فعل سيئ. فالعمل المقبول هو ذاك الذي يحدث تحوّلاً حقيقياً في الإنسان؛ تحوّلاً يقود إلى تنمية قدراته واستعداداته الوجودية للحياة البرزخية. وهذا التحوّل والنمو يشكّلان جوهر الاستعداد للآخرة. فكما أن مجرد وجود الجنين في الرحم لا يكفي لاستمرار الحياة، بل لا بد من نمو الأعضاء وتكاملها، كذلك لا يكفي في الدنيا مجرد العيش أو حتى تحصيل الثواب؛ إنما العامل الحاسم هو مقدار النمو الوجودي الذي يحققه الإنسان في ذاته.

إنّ **العمل المقبول** يؤدي وظيفتين متلازمتين في آنٍ واحد؛ فمن جهة، يُبعد الإنسان عن كل ما يمكن أن يكون سبباً للشقاء والعذاب، إذ يضعف أو يزيل الصفات والميول والتعلّقات التي تتحوّل في عالم البرزخ والآخرة إلى قيود وآلام. ومن جهة أخرى، يُنشئ في النفس كمالاتٍ تمكّن الإنسان من حياةٍ جيّانية؛ حياة يسودها السكون والسلام والأمن الداخلي، ويغيب عنها اللغو والتوتر واستنزاف الروح^١، حيث ينسجم الإنسان في هذا النمط من الوجود مع الحقيقة ذاتها.

^١ «لا يَشْمُغُونَ فِيهَا لُغُوا وَلَا تَأْتِيَهُمْ، إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا؛ سورة الواقعة الآيات ٢٥، ٢٦»

وإذا اعتبرنا الدنيا رحمًا، فإن أعمالنا تمثل عمليات النمو الجارية داخل هذا الرحم. فلا عضو من أعضاء الجنين يتكوّن فجأة أو دفعة واحدة؛ بل كل شيء يتم تدريجيًا، متواصلًا، وخاضعًا لنظام دقيق. وعلى هذا القياس، فإن تحصيل أسماء الله الحسنى، كالجلم مثلًا، لا يظهر في الإنسان على نحو مفاجئ؛ بل تُبنى هذه الأسماء عبر ممارسة العمل المقبول بصورة مستمرة.

ولتقريب هذه الفكرة، يكفي التأمل في تجاربنا اليومية. فحين يعبر الإنسان عن غضبه باستمرار في مختلف المواقف، فإنه يسير عمليًا في اتجاه معاكس لاكتساب الصفات الإلهية. وفي هذه الحال، سيواجه بعد دخوله عالم البرزخ ضغطًا ومعاناة بسبب افتقاده لتلك القدرة، تمامًا كمولود وُلد برئتين غير سليميتين، فيصبح التنفّس بالنسبة إليه عملية مؤلمة.

وعلى العكس من ذلك، عندما يدرّب الإنسان نفسه مرارًا وبوعي على الالتزام بالإنصاف في مواقف صعبة، وكبح الغضب، وصون حقوق الآخرين، فإنه يكون بصدد بناء أدوات وجودية تتناسب مع عالم الآخرة؛ أدوات تصبح فاعلة في عالم البرزخ. وهنا يتجلّى الفارق الجوهرى بين العمل المقبول والعمل الذي لا يترك أثرًا. ومن هذا المنظور، تتمثل مهمّة الإنسان في الدنيا في صناعة ما يلائم العالم الآتي من أدوات للعيش فيه. وهذه الصناعة بعينها هي الاستعداد الحقيقي للآخرة. فالدنيا تمنحنا فرصة قصيرة لكنها حاسمة؛ فرصة تنتهي بالموت، غير أنّ نتائجها تبدأ عنده. فالموت هو اللحظة التي تدخل فيها جودة ما صنعناه مرحلة التفعيل والاستثمار؛ ولادة جديدة، إمّا أن تكون مقرونةً بالعافية والسلامة، وإمّا أن تكون مثقلةً بالنقص والقيود.

العوائق الخفية والظاهرة في مسار الاستعداد للآخرة

إذا اعتبرنا الدنيا رحمًا، واعتبرنا الموت لحظة انكشاف جودة هذه الولادة، فعلينا أن نُقرّ بأن سلامة هذه الولادة ترتبط، أكثر مما ترتبط بكثرة الأعمال الظاهرية، بغياب العوائق التي تمنع نمو وجودنا وتعترض طريق الاستعداد للآخرة. وفي هذا المسار نواجه عائقين أساسيين ومدمرين: أحدهما ظاهر ومحسوس، والآخر خفيّ وأشدّ خطرًا. هذان العائقان هما الذنب والعُجب (أي الإعجاب بالنفس)، وهما يعطلّان أو يوقفان قدراتنا الحيوية اللازمة للحياة في عالم الآخرة.

لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الذنب على أنه مجرد مخالفة لأمر أو فعلٍ سيئٍ فحسب. من منظور الولادة، فإن كل ذنب هو بمثابة إحداث خلل أو تشكّل غير متوازن في بنية وجودنا. فمن كان منغمسًا في المعصية هو أشبه

بجنين، بدل أن تنمو أعضاؤه في رحم أمه نموًا متناسقًا ومنسجمًا، يتعرض للاضطراب والانحراف. ومسار مثل هذا الجنين لا يتجه أساسًا نحو ولادة سليمة وكاملة، حتى لو بدا حيًا في الرحم. وكل مرة نرتكب فيها ذنبًا، فإننا في الحقيقة نُضعف أو نُعدم جزءًا من قدراتنا وإمكاناتنا على الولادة السليمة إلى عالم البرزخ والآخرة. فالذنب يجعلنا عاجزين عن العيش في الشروط السامية للحياة المقبلة، وهذا النقص الوجودي ذاته هو ما يتحول إلى معاناة وألم.

غير أن الخطر الأعظم في هذا الطريق ليس دائمًا ظاهرًا. فقد حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوضوح صادم من أن الإنسان، حتى لو لم يكن من أهل المعصية الظاهرة، قد يُصاب بحالة أشد تدميرًا من الذنب نفسه، وهي «العُجب». العُجب هو افتتان الإنسان بذاته ووجوده. ففي هذه الحالة نعشق أنفسنا، وعبادتنا، وعلمنا، ومكانتنا، وكمالاتنا الظاهرية، بل وحتى الطريق الروحي الذي نسلكه. وخطورة العُجب لا تكمن في أنه يخفي النقص فحسب، بل في أنه يوقف عملية النمو الوجودي ويُجمّد الإنسان عند ما هو عليه.

وأما الفرق القاتل بين العُجب والذنب فهو أن المذنب يدرك في نهاية المطاف أنه مريض، فتظل أمامه إمكانية التوبة والرجوع، أما المصاب بالعُجب فيرى نفسه سليمًا، بل متفوّقًا، فلا يشعر بحاجة إلى التوبة. وبما أنه يرى في نفسه الكمال، فإنه لا يسعى إلى التغيير ولا إلى النمو. هذا الحال يشبه جنيًا يعاني من عيبٍ خطير، لكنه لا يحمل أي علامة خارجية للألم أو إنذار؛ فلا يبذل أحد جهدًا للعلاج أو الإصلاح، فيُحرم من الولادة السليمة. عندئذ تتحول الأعمال الصالحة إلى أدوات لتأكيد «الأنا»، بدل أن تقرّبنا إلى الله وتبني وجودنا، فتُهدر أرصدتنا وتدمّر ما جمعناه. وهنا لا نقترّب من الولادة السليمة فحسب، بل نبتعد عنها أكثر بسبب وهم الكمال.

إن اتخاذ موقف دفاعي أمام النقد البتاء، والشعور بالتفوّق على الآخرين، والإحساس بعدم الحاجة إلى إصلاح النفس، وغيرها من السلوكيات، كلها قد تكون علامات على توقف نموّنا الوجودي بسبب العُجب. وفي مثل هذه الحالة قد نبتعد عن الذنوب الظاهرة، لكننا نكون قد أغلقنا طريق ولادتنا السليمة بعوائق خفية.

إن واجبنا في الخطوة الأولى هو إزالة العوائق التي تمنع الاستعداد للآخرة؛ سواء الذنوب الظاهرة التي تُحدث نقصًا وتشوّه ولادتنا، أو العُجب الذي يوقف النمو بوهم الكمال. فإذا كانت الدنيا رحمنا، فعلينا أن ننتبه جيدًا لما يتكوّن في داخلنا؛ لأننا سنولد إلى الآخرة بنفس تلك الجودة.

في هذا المقال قدّمنا نظرة جديدة إلى مفهوم الاستعداد للآخرة، وبيّنا أن الدنيا هي رحم بناء وجودنا للحياة الأخرى، وأن الموت هو ولادتنا إلى ذلك العالم. هذه الولادة هي جوهر استعدادنا للآخرة، وجودتها مرتبطة مباشرة بما نصنعه في هذه الدنيا.

فالعَمَلُ المقبول ليس مجرد أداء للواجبات، بل هو فعلٌ يبني وينمّي قدراتنا الداخلية للعيش في العالم التالي. وفي هذا الطريق يبرز عائقان أساسيان: الذنوب الظاهرة التي تُنقص وجودنا، والعُجب الخفيّ الذي يوقف النمو، بل قد يكون أخطر من الذنب نفسه. أما مهمتنا في هذه الفرصة الدنيوية القصيرة فهي بناء أنفسنا وتربيتها؛ لنصنع لأنفسنا ولادةً سليمةً وكاملةً نحو الأبدية، ونحصل بأفضل صورة ممكنة على الاستعداد الحقيقي للآخرة.